العفوية الجميلة في شعر شفيق حبيب
حول ديوان "صارخٌ في البرِّية"

الدكتور / بطرس دلـه

في هذه المداخلة سأحاولُ استعراضَ شيءٍ مما جاء في هذا الديوان، ولنبدأ أولاً بالتسمية.
فاسم الديوان "صارخٌ في البرِّية" يذكرُنا بالمسيحية أولاً ثم بيوحنا صاحب الإنجيل الشهير الذي يعتبر نفسَه "صوتًا صارخًا في البرِّية" يُعِدّ لطريق الرب ويرجو أن يجعل سبله مستقيمة.

هذا الاستهلالُ، وهذه التسميةُ الشفافة، تغنينا من اللمحة الأولى بفهم ما يريد شاعرُنا شفيق حبيب من أنَّ ديوانه هذا هو صوتُ صارخٍ في البرِّية على شعوب العالم الواسع، والشعوب العربية كي تصحوَ من سُباتها لمعالجة قضية شعبنا العربيّ الفلسطينيّ.
وإذا كان الأستاذ شفيق يقف مناديًا ومُنبِّهًا، فإن دافعَه لذلك هو عشقه لوطنه الجريح ولما عاناه من ملاحقة السلطات ومحاولة كمّ الأفواه التي تمارسُها أجهزةُ الظلام إلى جانب مصادرة الكلمة وحرية الكلمة بالرغم من الادّعاء بأننا نعيش في ظل نظام ديمقراطي أو في واحة الديمقراطية الشرق- أوسطية.

إلى جانبِ هذا كله يُفاجئنا الشاعر بالتذمُّر الشديد من الشعب العربي، كل الشعب لأننا كما يقول: "نلحسُ الأيدي ونستجدي رضا الأسيادِ ذُلاّ" ونقف هامشيين "كذبيح الطير الذي يحيا مأتمَه"، ثم يستنجدُ بأبي ذرٍ الغفاري، كبير الصعاليك كي يقفَ حاكمًا يحاسبُ خونة الشعب على ما جنت أيديهم لأن الجهل صادَرَ فمَ هذا الشعب، وليس لنا من مُنقذٍ سوى الثورة لأن الثورة نارٌ ونورٌ وهدىً لهذا الشعب الذي باع دمَهُ ذلاّ وهوانًا وانكسارات.

في قصيدته "أصواتُ صارخٍ في البرِّية" يحاول شاعرنا أن يعلن ثورته- انتفاضته على الباغي الذي حاول أن يكسرَ جناح الشاعر ليمنعه من التحليق، فهو يؤمن أن الحرفَ أقوى وأبقى من كل مشاريع إسرائيل الصهيونية التي اغتصبت أرض فلسطين كما تغتصبُ الفكرَ العربيَّ الذي أنار الدنيا وألقى علينا وشاحه:

حلَّقَ الشاعرُ في الأجواءِ لكن

حاولوا أن يكسِروا يومًا جناحَه..

خسئ الباغي..

فإن الحرفَ أبقى

من مشاريعِ اغتصابِ الأرضِ..

والتاريخِ..

والفكرِ الذي أعلى

على الدنيا وشاحَه..

وإذا اتفقنا على أن الشاعر؛ كلَّ شاعر؛ هو مرآةُ عصره، فإن مَهَمته الأساسيّة تكمن في رؤية المستقبل وتوضيح الحاضر والتحذير من أخطاء الماضي.

من أجل هذا التوضيح والتحذير، نجد شاعرَنا مستعدًا لأن ينكأ جراحَه فيجهشَ الحرفُ بالبكاء انحسارًا.. وانكسارًا ويسمع الله نواحَه فيقدِّس كفاحَ الشاعر.. أجل يقدسه ليصبحَ عزيزَ الله.

وفي مكان آخر يرى نفسه "عصفور القرن الضِّليّل" فيأخذ من الأناجيل صورة السيد المسيح مُعلقًا على الصليب مطعونًا في خاصرته؛ وليس له حولٌ ولا قوةٌ ولا سلاحٌ يدافع به عن نفسه سوى بعض التمائم والتعاويذ والأدعية، وتاريخُ هذا العصفور، هو تاريخُ قمعٍ ورياءٍ وبيوتِ بغاء وأرصفةٍ أكلت لحمَ الفقراء، وهو يشكو أن زمانه مشروخٌ منكفئ كمرايا حدباء، ومع ذلك فهو يرى أن من واجبه التغريدَ على الرغم من الأشواك الكثيرة التي فقأت أحداقه كما التهمت النيران كلَّ أوراقه فباتت دنياه صحراءَ كما باتت أفكارُه عجفاء.

- **قضيةُ اللاجئين :**

نحن نعرفُ كما تعرف كافة شعوب الأرض أن ما من قضية لاجئين إلا ووجدت حلاً ما عدا قضية اللجوء الفلسطينيّ، فاللاجئ الفلسطينيّ هو غريبٌ حيثما حلَّ وارتحل، غريبٌ في لبنان وسوريا العرب، وغريبٌ في أردنّ السلالة الهاشمية كما هو غريبٌ في ليبيا القذافي مطرودٌ منها.

يتحدث شاعرُنا في قصيدته " لنا مَوْعِدٌ " عن تاريخ اللاجئين الفلسطينيين بلسان المتكلم:

كانت لنا،

لعبنا صغارًا..

هربنا كبارًا، وعادت جموع القبائل

عادت فلولاً

(لتحيا فلولاً)

على الخبز والسّمن من ما نحات المُؤن.

ويختصر كل المعاناة فيصِل إلى اتفاقية غزه وأريحا أولاً، ويهزأ من هذه الاتفاقية الهزيلة بقوله:

إذا ما أعادوا لنا كِسْرةً

من ترابِ الوطنْ...

تغنَّيكَ شطآنُ غزّةَ يا سيِّدي !!

ويبكي الجليلُ انهيارَ الجبالِ

وموْتَ الرّجالِ

ونصرَ الوَثَنْ....

وهو يعيش على أمل المستقبل الكفيل بقيام الكيان الفلسطينيّ إلا أن هذا الكيانَ لم تأتِ ساعته بعد:

لنا مَوْعِدٌ سوف يأتي..

فما زالَ سِرًّا دفينا

في ضميرِ الكبيرِ..

.....

سنشربُ من بحرِ غزّةَ

وحْلاً..

وذُلا..

وخلاّ..

وهكذا فإنه يعيش كما يعيشُ جميعُ اللاجئين على هذا الأمل الموعود، وإلى أن تقومَ الدولة الفلسطينية سنشربُ نحن العربَ من بحر غزة وحلاً وذلاً وانكسارًا على "ناضِرات الدِّمَن"، أي بقايا القرى التي هدمتها جرافات الاحتلال.

وقد بلغ به الحزن أي مبلغ لأنه يرى أن الإنسانَ العربيَّ يشكو وضعَه إلى الله ولا يلجأ للقوة المسلحة كما جاء في ديوانه السابق "تعاويذ من خزف"، حيث يقول في قصيدته "أغلقتُ أبوابي":

تمضـــي بنـــا الأيـــامُ تأكـــلُ لحمَنـــا

فنقـــولُ تلـــكَ مشـــيئةُ الأقـــدارِ

كما يدخل أحيانًا في مقارنة، يعرف أنها خاسرة ولكنه يرمي من ورائها إلى كشف مَواطن الضعف لدى الإنسان العربيّ.
ففي ديوانه المذكور يقول:

غيرُنا يغزو مجاهيلَ الفضاءْ

يزرعُ الدّنيا

علومًا.. ونجومًا.. وسناءْ

ويظلّ الناسُ في شرقي عبيدًا

جُهَلاءْ..

من هنا فإنه لا يرى النور في آخر السرداب وكأنَّ العالم سينتهي غدًا أو بعد غدٍ وسيظلّ اللاجئ الفلسطينيُّ على لجوئه غريبًا ومطاردًا وغير مرغوب فيه حيث حلَّ.

وبما أن العالمَ العربيّ، يتهافتُ على توقيع الاتفاقيات مع إسرائيل، فإن القضية الفلسطينية ليس لها إلا البارود والشهادة أو الاستشهاد.

في قصيدته " عاصفةُ الدّهور " لم أتمالك نفسي عن البُكاء، فنحن شعبُ الانتفاضة الثانية، انتفاضة الأقصى نقدّم الشهداءَ كل يوم، والأمهات الثكالى يبكين بصمت، ويُطلقن زغاريدهن عندما يستشهدُ أبناؤهن الصغار، ولسوف ينتظرن عودة هؤلاء الأبناء في كل صباح وهنّ واثقات من أنهم لن يعودوا، وطالما كانت النتيجة كذلك فإن شاعرَنا غيرُ راضٍ عن النتيجة، لا بل ثائرٌ متمردٌ عليها لأن العمل الفلسطينيّ يودِّعُ الشهداء يومًا بعدَ يوم ومع الشهداء نودِّعُ عيوننا وقلوبَنا، فحتى متى....؟؟!.

إن الانتفاضة هي حلم الشاعر المنشود، لأن الدول العربية كما ذكرنا تلهث خلف أمريكا والعولمة، وضمير العالم مُهْترئٌ يجثو لمن يغزو ويغتصبُ الأرض بقوله:

وضـــميرُ هـــذا الكـــونِ مُهـــترئٌ

يجثـــو لمـــن يغـــزو ويغتصِـــبُ

وعلى الرغم من نداءات الشعراء لكل شعوب العالم وللدول العربية، إلا أنه لا سميع ولا مُجيب:

أنادي.. أنادي..

صدى الصوتِ يخبو

وفوقَ بلادي يموتُ القمرْ

وفي جَوفِ هذا الثرى عظمة..

صرخة.. :

- إنني الصّوتَ كنتُ

وأنت المدى والخبرْ

ثمّ يعود ليتساءل:

لماذا يجفُّ النهَرْ ؟

لماذا تجفو الحمائمُ أعشاشها الدافئةَ

ويغادرُ فوْحُ الزهر الخميلة ؟

وتموتُ ألحانُ الوترْ

ليبقى الحنينُ والذكريات في رماد السيَرْ ؟.

على صفحة ٩٠ ينصِّبُ الشاعرُ نفسه شاهدًا على ويلات العصر، فالشهادةُ هنا هي وثيقةٌ وتوثيقُ إدانةٍ لمأساة شعبنا الحقيقية، وهو يؤرخُ هذه الشهادةَ لئلا تضيع على مزبلة التاريخ وهو واثقٌ أنه لن يستطيع أحد تكذيبه في المستقبل حيث أن شهادته هي من مصدر أول ورأى ملاحقة الإنسان الفلسطيني بعينه، وأحسَّ الكثير من الملاحقات على جلده...!!.

أنا شاهدُ العصْرِ

والقهرِ... والقسْرِ

والأزمنة...

تدورُ الدوائرُ...

تبكي المصائرُ...

يعلو على كلّ صوتٍ

صريرُ رَحى المطحنة...

في ديوانه السابق " تعاويذ من خزف " الصادر عام ١٩٩٦م يدعو الأستاذ شفيق بشكل واضح إلى أن روعة الحرف والكلمة تكون أحيانًا أقوى من كل الأسلحة، وقد تبيد الحضارات المختلفة، إلا أن الحرف يظلّ مشعاعًا في قوله :

ارفعْ عيونكَ نحوَ أروقةِ الخيالْ

واكتبْ !!

فإنّ الحرفَ مُلتهبًا

أشدّ منَ النصالْ

بادتْ حضاراتٌ..

وظلّ الحرفُ مِشعاعًا

ونارًا لا تطالْ....

ومع ذلك يشعر القارئ من حين لآخر، أن شاعرَنا ملتهبُ العواطف متحمسٌ جدًا في كل ما يكتب، إلا أن نغمة الحزن تسيطرُ عليه، الحزن على أربعة ملايين ونصف لاجئ فلسطيني مُشرَّد، يحلمون بأمل العودة ويحلمون بالآتي وكأنه قريب المنال إلا أنه يتوب فجأة من هذا الحماس، ويتذكر ما مرَّ به من عناء لأيام الرجوع ولعودة اللاجئين الفلسطينيين، فيتنبه إلى أن فرسان الخنوع من حكام العالم العربي، كانوا قد خيَّبوا آماله بالعودة :

كم تغنَّينا بأحلام الرُّجوعْ

خيَّبَ الآمالَ فرسانُ الخنوعْ

▪ الناحيةُ الفنيّةُ في الدِّيوان :

يقول الدكتور عبد الهادي محبوبة في مقدمته لكتاب نازك الملائكة "قضايا الشعر المعاصر" ما يلي:

(إن شعرَنا العربيَّ - بين الآداب والفنون الجميلة العالمية كان ولم يزلْ في طليعة فنِّ القول من حيثُ معانيه وأساليبُه، ومن حيثُ مضامينه وأغراضه، وصُوَرُ التعبير فيه، ثم من حيثُ موازينُ عَروضِهِ وقافيتِهِ وتنوُّعُ أشكالِه.. فقد دلتنا المجموعاتُ الضخمة من الدواوين المطبوعة والمخطوطة.. على مدى الخصب الذهني والعاطفي، والثراء اللغوي - التعبيري الذي كان يتميز به الشاعرُ العربيّ).

تعتبر نازك الملائكة، أولى شعراء العربية التي كتبت الشعر الحرّ واستجاب لها العَروضُ العربيّ وذلك منذ عام م١٩٤٩، ونحن نعي فكرة أن الأدبَ؛ كلَّ أدب، ليس له تاريخ ليدَّعي الباحث أن الشعر العربي يتغير في كل زمان ومكان.

الأستاذ الشاعر شفيق حبيب، يتألقُ في ديوانه هذا والذي نحن بصدده حيث أجاد في بعض القصائد العمودية، أي ذات تفاعيلَ وبحرٍ عربيّ - كما هي قصائدُ الشعر الحر- أيضًا التي جند فيها كل طاقاته فجاءت على أوزان بحور الشعر العربي للخليل بن أحمد - واضع أسس علم العَروض، وبما أن الشعر وكل إنتاج

شعري وُضع أساسًا ليُغنى فإن الأستاذ الشاعر أجاد في استعمال بحور الشعر في القصائد العمودية المقفاة كما أجاد في قصائد الشعر الحرّ أيّما إجادة.
ولذلك أيضًا لم يتنازل عن إدخال بعض القصائد العمودية إلى جانب القصائد غير العمودية.

وبما أنه شاعرٌ متمرسٌ في كتابة الشعر، فهو ليس بحاجة لإثبات أن لديه موهبةً في كتابة الشعر من أي لون، وفوق ذلك وهذا هو الأهم ؛ لم ألاحظ صناعةً لغويةً خاصةً على مدى هذا الديوان، بل بالعكس ما نلمَسه هو أن معظمَ القصائد سلِسَةٌ منسوجة، والمعنى هو الأهم، أما القالب اللغوي فهو مُسَخرٌ لديه لنقل المعنى ليصلَ ويدخلَ نفسَ كل قارئ، وقلتُ في الصفحات السابقة إنني لم أتمالك نفسي من الدموع في قصيدته "عاصفة الدّهور" التي منها ما يلي:

قلبي معَكْ..

ورصاصُ وحشِ الغابِ

يحرقُ أضلعَكْ..

قلبي معكْ..

ودماءُ قلبكَ نازفاتٌ

كي تضيءَ الدربَ..

- يا زينَ الشبابِ -

فلم أُصَدِّقْ مَصْرعَكْ..

يا أيها الثاوي !!

على صدرٍ حنونٍ أرضعكْ

تدعوكَ أمكَ في الصّباحِ

فمَن يُجيبُ ؟؟؟

وصوتها الباكي يُهدهِدُ مَسْمعَكْ :

- عُدْ يا بنيَّ !!!

فكيف تهجُرُ مضجعَك ؟؟!.

وإذا كان شاعرنا لم يعتنِ بشكل خاص بالصناعة اللغوية؛ فليس معنى ذلك أن الديوان خالٍ من المحسنات البلاغية بل على العكس من ذلك، تجد المحسنات منتشرةً على مساحة كل القصائد؛ ولكن بشكل طبيعي وليس مصطنعًا فالجناس مثلا يردُ على الشكل التالي في صفحة ٤٢:

سنشربُ من وحْلِ غزّةَ وحْلاً وذُلاّ وخلاّ..

والاستعارة في كل بيت تقريبًا؛

فجذوري عششَ فيها الدّاءْ / فسلاحي بعضُ تميماتٍ وصلاةٌ خاسرةٌ ودُعاءْ

أو في صفحة ٣١ يقول:

إنَّا في زمنٍ مشروخٍ / منكفئ كمرايا حدباءْ !

فكيف يكون الزمن مشروخًا ؟! وكيف ينكفئُ كمرايا حدباء؟ ثم أنه لا يبخل على القارئ عندما يقول: أنا أومن..! فالدِّين عندي صفاءُ النفس.. مع الله، حيث يقول :

ديـــني مـــع اللهِ لا أرضـــى لـــه وســـطًا
مـــا أُنزلـــتْ للـــدّما والعُنـــفِ أديـــانُ

والجَهـــلُ يطغـــى علـــى عقـــلِ الـــذين غَـــدَوْا
كـــالعيسِ في البيـــدِ لا قيـــدٌ وأرســـانُ

والعـــدلُ أضـــحى قتـــيلاً في ضـــمائرِهم
والنـــاسُ فـــوقَ دروب البَغـــيِ ذؤبـــانُ

هذه مقابلة جميلة بين العدل والدِّين، بين الناس والذؤبان، بين زارع الأرض وبين جامع الخير والغلات لأن ذلك منبوذ ومحتقر وجوعان وهذا مُتخمٌ وهلمَّ جرا...

ما نلمسه أيضًا بشكل واضح هو الحرية في اختيار الأوزان والقوافي الحُرّة، ثم الموسيقية التي تزيد الكلمات روعةً وبهاءً، ولكن فوق ذلك كله نلاحظ التدفق المتفجر كمياه المطر الزاحفة في مجاري الأنهار والوديان مما يجعلُ قصائدَ الديوان كلها قريبةً

من النفس سريعة المنال لا تعقيد فيها ولا صناعة تؤثرُ أثرًا سلبيًا في نفس القارئ بل عفوية جميلة مُحببة تطبع الديوان بطابعها الخاص وتميِّز شعر الأستاذ شفيق بميزة خاصّة وتنقله في طفرة نوعية خاصّة مبتعدًا عما اعتدنا قراءتهُ لهذا الشاعر.

ولا يفوتنا أن نذكر أن المضامين باتت لدى شاعرنا أهمّ من القوالب الشعرية، وهذا ما جعله يلجأ إلى الشعر الحرّ، وفي هذا الشيء الكثير من النضوج الفني الإبداعي والوعي السياسي الاجتماعي، ونحن نعرف أن الإنسان إذا ما قاسى وعانى من وضعٍ مُعيّن ولم يجد له منفذًا منه فإنه سوف يلجأ إلى إبداعٍ من نوع خاص يُعينه على التغلب على ظرفه والخروج منه شامخًا مرفوعَ الرأس، وهذا هو جوهر الانتقال والتداخل بين الشعر الحرّ والشعر الموزون المُقفى اللذَيْن يتبادلان مواقعَهما على صفحات ديوان "صارخ في البرِّية"، كما أن اتحاد الشكل بالمضمون يترك في نفس القارئ الذوّاقة أثرًا كبيرًا بسبب الانصهار الأصيل في اتحاد هذين العنصرين (أعني الشكل والمضمون) اللذَيْنِ تصاحبُهما حركةٌ متدفقةٌ لا نهائية.

دَوْرُ الكلمة في الشعر أن تتجاوز معناها الحقيقي الذي وُجدت من أجله إلى ما هو أكبر وأعمق، فالكلمةُ يجب أن تعلوَ على ذاتها، وأن تزخرَ بأكثرَ مما وُجدت له، وأن تشير إلى أكثر من مدلولها الحقيقي.

يقول أدونيس في كتابه "زمن الشعر" ص١٧: "علينا في الشعر أن نخرجَ الكلمات من ليلِها العتيق، أن نضيئَها، فنغيِّر علائقها ونعلو بأبعادها".

ولا شك أن شاعرنا الأستاذ شفيق حبيب قد وُفقَ إلى مثل هذا كثيرًا، والنماذج على ذلك لا عدَّ لها لأنها تبرز في جميع صفحات الديوان، والقارئ النبيه سوف يلاحظ ذلك منذ الصفحة الأولى والشطر الأول في كلمة عيون حيث يقول :

نحن شعبٌ نتغنى بعيون العولمة

فهل للعولمة عيون؟؟.

إذن هو يُحمِّل كلمة عيون شيئًا آخرَ أكبرَ مما وُجدت له؛ كما يحوّل العولمة إلى كائن له عيون؛ وفي هذا وذاك يبرز التجديدُ والإبداعُ بشكل مميّز.

جريدة "الاتحاد" الحيفاوية ٨-٦-٢٠٠٢

مداخلات أدبية دراسات وأبحاث - ٢٠٠٢